خرائب الشام

مدينة عمّان ووادي موسى

مدينة عمّان قصبة بني عمون شرقي الاردن على نحو مرحلتين من القدس كان اسمها ربة بني عمون وكان لها شأن كبير في الزمن القديم. لما مات ناحاش ملكها وملك حانون ابنهُ ارسل النبي دواد ملك بني اسرائيل وفدًا لتعزيته فلم يكرم الوفد بل اوجس منهم خيفةً وحلق لحاهم وقص اذيالهم فاغتاظ داود جدًّا وحاربهُ سنتين الى ان فتح ربة عاصمتهُ وقتل اهلها واخذ تاجهُ عن رأسهِ ووزنهُ وزنة من الذهب مع حجر كريم

وعاد بنو عمون فشادوا قصور ربّة واعلوا اسوارها فتنبأ عاموس النبي قائلاً اضرم نارًا على سور ربّة فتاكل قصورها. ودخلها الفرس وهم نازلون الى مصر ثم وقعت في يد البطالسة فسماها بطليموس فيلادلفيا واشتهرت بهذا الاسم زمانًا طويلاً وكانت من المدن العشر شرقي الاردن . وحاصرها انطيوخس الكبير سنة ٢١٨ قبل الميلاد وكانت جنود بطليموس فيلوباتر فيها فعجز عن فتحها الى ان دلّهُ واحد من الاسرى على مجرى الماء اليها فقطعهُ واضطرها الى التسليم

وعظم شأن هذه المدينة في عهد الرومانيين وبنوا فيها المباني الكثيرة التي لا تزال اطلالها الى الآن شاهدة بما كانت عليهِ من الفخامة والرونق وبما كان لاهلها من الثروة والجاه . وكل الاطلال يونانية او رومانية الاصل الاّ القلعة فانهُ يظن انها قديمة من قبل ايام الرومانيين ولعلها من عهد بني عمون

وتتصدّر اطلال عمّان مع غيرهم من اهالي مدن الشام وصارت مدينتهم كرسي اسقف ولا تزال جدران كنيستها قائمة على جانب النهر (الزرقا) وفي حجارتها روابط من الحديد او النحاس لتوثيقها او لالصاق النقوش بها واعمدتها من الرخام الابيض من الطراز الايوني وهي مصروعة الآن على الثرى مكسّرة ومبعثرة والى جانبها كنيسة اخرى كان لها برج او هو ما ذنة اضيفت اليها لما حوّلت جامعًا ولا تزال جدرانها قائمة

وعلى مقربة من ذلك حصن لهُ برجان كبيران مستديران بينهما سور من حجارة كبيرة منحوتة مقرنصة من قبل عهد الرومانيين وصلة على اربع اقواس الواحدة منها فوق الاخرى تصل بين الخندق وباب الحصن اما داخل الحصن فخراب الاّ الجدار الشرقي فانهُ لا يزال قائمًا وفيهِ محاريب للتماثيل ونقوش كورنثيّة وداخل الحصن اعمدة كبيرة كان سقفهُ مستندًا عليها

ويتلو الحصن هيكل كورنثي بديع الصنعة لهُ في جانبهِ الغربي ثلاثة ابواب حول الاوسط منها نقوش من الطراز المصري . وعلى الجانب الآخر من النهر معمَّد فيهِ احد عشر عمودًا لا تزال ثمانية منها قائمة وتيجانها كورنثية

وهناك مشهدان الصغير منهما لا تزال جدرانهُ قائمة لكن داخلهُ خراب مملوء بالانقاض والاعمدة المكسرة والكبير من اكبر مشاهد سورية واضخمها واجملها قطر ساحتهِ ٤٥ خطوة حولها المقاعد ٤٣ صفًّا الواحد فوق الاخر كاهلَّة متراكزة

اما القلعة فعلى شاهق يعسر الصعود عليهِ وهي قسمان احدهما ارفع من الآخر والقسم المرتفع مساحة سطحهِ عدة افدنة مغطاة بالانقاض وفيهِ صهريج كبير والى جنوبيهِ بناء مربع ظنهُ الماجور كندر من عهد الفرس (بني ساسان) او من عهد العرب . والى غربي القلعة كثير من الاعمدة الكبيرة باقية من آثار ما كان فيهِ من الابنية

وحول المدينة ابراج كثيرة كانت مدافن لعظمائها مبنية بالحجر النحيت وفيها نواويس الموتى

كنا نحسب ان ما وصلت اليهِ يد الدهر من التخريب والتدمير لقف عندهُ وانهُ اذا صلحت حكومة البلاد نقام فيها ادارة تراقب آثارها القديمة وتهتم بحفظها فلا تفقد الاثر بعد العين . ولكننا كنا نطالع مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية قبيل كتابة هذه السطور فعثرنا في الجزء الاخير منها على مقالة لاحدى السيدات الانكليزيات زارت بلاد الشام منذ عهد قريب ووصفت البلاد الواقعة شرقي الاردن وخرائب عمان في جملتها وهاك ترجمة ما قالتهُ

" نزل الشراكسة في هذه البلاد منذ بضع عشرة سنة وبنوا قراهم على ضفتي نهر الزرقاء (اليبوق) ونواصرهِ بعد ان هجر السكان هذه الانحاء منذ اكثر من الف سنة ودبَّت الحياة في مدينتي اليونان عمان وجرش وقامت اكواخ الطين بين اعمدة الشوارع القديمة وتحولت اروقة المشاهد الى مساكن ومخازن وشقَّت المحاريث ساحات الاندية وصارت الحمامات حظائر وبيادر . ولا شان لتلك الآثار عند الشراكسة فلا يحسبونها سوى محاجر يقتلعون الحجارة منها فتجد في جدران مبانيهم تيجان العمُد الكورنثيَّة وسوقها المضلَّعة وتجد امام اكواخهم مذابح المرمر المنقوش يستخدمونها موائد يأكلون عليها ونصُب الرخام يدقون عليها الحبوب والكتابة اليونانية التي عليها تطمسها اقدام نسائهم واولادهم "

لما قرأنا هذه السطور صفقنا صفقة الاواه وقلنا لقد عجز الدهر عن ان يفجعنا بالاثر بعد العين ولكن ما عجز عنهُ لم يعجز عنهُ بنو الانسان . افليس بين رجال دولتنا العلية مَن تأخذهُ الشفقة على آثار العمران والحمية على مجد الاوطان فينادي بصوت يسمعهُ اهل الحل والعقد

ويمنع يد التخريب عن العبث بما بقي من هذه الاطلال . لقد بعث الينا احد توابع الاتراك بالصورة الفوتوغرافية المنشورة في صدر هذه المقالة وحبذا لو بعث الينا بصور غيرها من تلك المدينة لعلَّ منظرها يغري احدًا بحفظها اذا وجد الى ذلك سبيلاً

ومن الصور الفوتوغرافية التي صوَّرها ذلك النابغة العثماني وبعث بها الينا لنشرحها لهُ ولقراء المقتطف صورة خزنة فرعون في وادي موسى وهي التي كانت معروفة عند اليونان والرومان باسم بترا ولعلها البتراء التي ذكرها ابن هشام في غزوة النبي لبني حيان حيث قال انهُ سلك على غراب جبل بناحية المدينة على طريقهِ الى الشام ثم على نخيص ثم على البتراء . وقد وصفنا هذه المدينة واهلها الانباط الذين بنوها في المجلد العشرين من المقتطف ولا بأس باعادة شيء مما ذكرناهُ هناك وهو

"وكانت البتراء للادوميين ثم تغلَّب عليها النبط جاؤوها من العراق العربي وكانوا اهل حضارة وتجارة ولغتهم كالارامية وحروفها كالحروف الكوفية والمظنون ان الحرف الكوفي مشتق منها . وجاء في التواريخ القديمة ان انتيغونس احد قوَّاد الاسكندر المكدوني الذي توفي سنة ٣٠١ قبل المسيح بعث حملتين على النبط في بتراء بعد ما استولى على سورية وفلسطين الاولى بقيادة قائد اسمهُ اثينيوس فهاجم بتراء سنة ٣١٢ قبل المسيح ورجالها غائبون عنها في سوق عمومية وغنم منها غنيمة وافرة من المر واللبان وخمس مئة وزنة من الفضة ولما عاد اهلها وراوا ما حلَّ بهم اقتفى اثرهُ ثمانية آلاف منهم وبيَّتوهُ وقتلوا اكثر رجالهِ . والحملة الثانية بقيادة ابنهِ ديمتريوس وبلغ خبرهُ النبط فامتنعوا عليهِ ولم ينلهم منهُ مكروه

"وذكر سترابو المؤرخ النبط في ايام اغسطس قيصر فقال ان عاصمتهم بتراء وقد سميت بذلك لان الصخور تحيط بها من كل ناحية وفيها مياه غزيرة لسقي بساتينها واكثر الارض حولها قفار ولا سيما في ما يلي اليهودية وكان تجار الهند والعرب يأتونها ببضائعهم وينقلونها من هناك الى العريش وزادت هذه التجارة في ايام الرومان فاختطوا طريقًا لها من ايلة الى بتراء فدمشق وطريقًا اخرى من بتراء الى اورشليم وعسقلان وثغور الشام

"واتى الفيلسوف اثيناذورس صديق سترابو الى بتراء واستوطنها مدة ورأى فيها كثيرين من الرومانيين وغيرهم من الغرباء وكانوا مستوطنين فيها

"وذكرها بلينيوس في القرن الاول المسيحي وقال ان النبط يسكنون مدينة اسمها بتراء في وادٍ اقل من ميلين اتساعًا يحيط بها جبال لا تسلك وفيها نهر جارٍ

"وقال يوسيفوس ان الاسكندر ملك اليهود حارب عُبَيْد ملك العرب (سنة ٩٣ قبل المسيح) وكان عبيد قد اقام لهُ كميناً في وعر عسر المسالك في الجولان فدخل الاسكندر وادياً عميقاً هو ورجالهُ ولم ينجُ منهُ الاَّ بشق الانفس

"ثم ذكر كيفية استيلاء ملوك النبط على دمشق فقال ان انطيوخس آخر ملوك السلوقيين قصد الحرث ملك بتراء فابعد الحرث من وجهه اولاً الى حيث تمكنهُ البلاد من مناجزته ثم انقلب عليهِ بغتةً بعشرة آلاف فارس من فرسانهِ فكاد جنود انطيوخس يولون الادبار ورأى منهم ذلك فاسرع الى لم شعثهم وتشديد عزائمهم فاصابتهُ ضربة قضت عليهِ وتفرق شمل رجالهِ بعدهُ وانهزم الذين نجوا منهم الى قرية قانا فماتوا جوعاً . وكان اهالي دمشق يكرهون بطليموس فدعوا الحرث ملك العرب وملكوهُ عليهم

"وخضعت البتراء للرومانيين في عهد تراجنس في اوائل القرن الثاني للمسيح وسماها سكانها باسم ادريانس اكراماً لهُ وضربوا نقودهم باسمهِ. ثم ذكرت في القرن الرابع والخامس والسادس وحضر مطرانها جرمانوس في المجمع السلوقي سنة ٣٥٩ . ومطرانها ثيودورس في المجمع الاورشليمي سنة ٥٣٦ ولم يبقَ منها الآن الا شيء من مدافنها وهياكلها وكلها منحوتة في الصخر على جانبي الوادي وهي من اعجب ما صنعهُ الناس كما ترى في الصورة المدرجة في صدر هذه المقالة"

والظاهر ان النبط كانوا يسمون بتراء سلعاً ومعناهُ الشق في الجبل لانها شقٌّ في جبل بحسب اليونان والرومان ان معناها الصخر وسموها بترا . وابتدأ خرابها من حين قامت تدمر وعظم شانها وانتقلت طريق التجار اليها. ولما تنصَّر اهالي مصر وابطلوا تحنيط موتاهم زاد شأنها ضعفاً لانهُ كان لاهاليها تجارة واسعة بالموميا الذي كانوا يحملونهُ من بحيرة لوط الى القطر المصري

والبناء المرسوم في صدر هذه المقالة ليس بناء بل هو نقش في صخر وردي جميل وقد ابدع النقاشون فيهِ ما شاؤوا فجاء كاجمل المباني الرومانية . واكثر آثار هذه المدينة الباقية الى الآن منحوت في الصخر كما تقدَّم ويدل على ان اصحابهُ كانوا على جانب عظيم من استحكام العمران ورفاهة العيش ولا عجب في ذلك لان سكانها كانوا تجاراً والثروة والرفاهة ابنتا التجارة . وكانوا في اول امرهم يقتصرون على التجارة ولا يهتمون بالزراعة ثم لما ضعف شان تجارتهم عادوا الى الزراعة لكنهم لم يفلحوا فيها كثيراً ولا عبرة بكتاب الفلاحة النبطية الذي ينسب اليهم لانهُ ليس لهم بل هو موضوع على الراجح في نحو القرن العاشر للميلاد

والظاهر ان هذه البقعة سميت وادي موسى حسبان ان موسى الكليم شق الصخر فيها واجرى منهُ الماء لبني اسرائيل على ما جاء في التوراة